أثر الشيخ الآبلي في تطور العلوم العقلية بتلمسان الزيانية

أ. قدور وهـــراني

جامعة تلمسان

رغم حالة الاضطراب المستمر التي عاشـــته الدولـــة الزيانيـــة بتلمـــسان (633هـــ/1236م- 962هـــ/1554م) إلا أنها عرفت في مختلـــف أطوارهـــا نهضة علمية كبيرة، فقد حرص حُكامها على جلب العلماء من كـــل الجهـــات والإغداق عليهم بالنعم وإقناعهم بالإقامة عندهم، وذلك للحاجة إلى إعداد جيـــل من الرجال يعتمدون عليهم في تسيير مختلف الشؤون، وقد بادر "يغمراسن بن زيان" منذ بداية تأسيسه للدولة إلى جلب العلماء إلى عاصمة دولته فأصبح ذلك سنةً حميدة دأب سلفه على انتهاجها، فازدهرت الحياة العلمية، وكـــان للعلـــوم العقلية حظ وفير من الاهتمام، فقد نبغ الكثير من العلماء في هذا الاختصاص.

ولا يمكن الحديث عن هذا المجال من العلوم دون التحدُّث عن الشيخ "أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلـــي" (ت:757هـــــ/ 1356م بفاس)، وبالنظر إلى الينابيع الذي استقى منها هذا العَلَمُ علمه، والرجال الـــذين استفادوا منه، فإنه يجب الحديث عن الأثر الكبير الذي كان له على تطور هذا الجانب من العلوم، فقد وصفه تلميذه "يحي بن خلدون" بـــ"الأستاذ الأصـــغر"، مقارناً إياه بالأستاذ الأكبر "أرسطو".

يُعتبر "الآبلي" من أشهر علماء تلمسان زمن الدولة الزيانية؛ فقد وُلد ســـنة (681 هـــ/ 1282م)، وهو أندلسي الأصل من مدينة "آبلة"[1] الواقعة بالـــشمال الغربي لـــ"مدريد"؛ كان والده قائدا عسكريّا ضمن جيش الدولة الزيانية في عهد "يغمراسن بن زيّان"، وكان جدُّ "الآبلي" لأمّه "ابن غلبون" قاضيا، فاعتنى بحفيده في غياب والده الذي كان دائما ضمن تنقّلات الجيش، هذه الرعايـــة ســـمحت للآبلي أن ينشأ ميّالا إلى العلم، ورغم صغر سنّه فقد استطاع استقطاب أنظـــار

وشغف طالبي العلم بمدينته واشتهر بتحكّمه في العلوم العقليّة والتعاليم، التـي عكف على تعلّمها وإتقانها، منذ كان يافعاً.

لقد كان الآبلي ابن عصره فقد تأثرت مواقفه وآراؤه بالظروف التاريخيـة الثقافية ولاسيما السياسية التي عاصرها، فقد شهد وهو صغير أحداث تعـرض تلمسان إلى حصار "يوسف بن يعقوب" لمدة ثمان سنوات، ورأى كيف عـانى أهله من ذلك خاصة بعد سقوط والده أسيراً [2]، فنشأ عازفاً عن السياسة كارهاً للتقرب من أهلها، مفضلاً صفّ المعارضة، ثم سافر إلى المـشرق ورأى مـا يتعرض له علماء المعقول من انتقاد قد يصل في كثير من الأحيان إلى التشكيك في دينهم، فعاش طول حياته في حذرٍ وحيطة، متجنباً دائماً التعبير عن أفكاره بحرية، إلا ما جاء تلميحاً أو بصورة عامة، ولو كان ذلك لأخص خاصته.

لقد تميز "الآبلي" باستقلاله الفكري فحرص على أن يكون خارجاً عـن أي مذهب سياسي أو عقائدي فقد وصفه "ابن مريم" في البستان: «بأنه آخر سلسلة الأئمة العلماء الذين تمكنوا من الاستغناء عن سلطة رؤساء النِّحـل» [3]. فقـد تهاطلت العروض على الآبلي للالتحاق بخدمة السلاطين الذين حكموا المغرب، فرفض معظمها أو لبى بعضها خشية البطش به؛ «فهرب من دعوة الـسلطان أبي حمو موسى الذي أكرهه على التصرف فـي أعمالـه، وضـبط الجبايـة بحسبانه»[4]، ففرَّ من السلطان "يوسف بن يعقوب"، واختفى بين الفقـراء فـي رباط العباد لابساً المُسُوح، ثم سافر إلى المشرق[5]. واعتذر عن الـسفر مـع السلطان "أبي الحسن المريني" من تونس إلى المغرب، وتثاقل في الالتحاق بابنه "أبي عنان" بعد ذلك، حيث مكث في بجاية مدَّة بدعوى حاجة طلبة العلم لـه[6].

لقد أخـذت كل مواقف "الآبلي" هذا المنحى فأخـذت صـبغة الاسـتقلال السياسي، فقد كان ينفر من كل ما يصدر عن السلطة السياسية، وكان ذلك يـتم دون التصريح بذلك علناً، فقد عارض اتخاذ المدارس التعليمية، فقـال: «إنمـا أفسد العلم كثرة التآليف وإنما أذهبه بناء المدارس...»[7]؛ ثم يـضيف مُعَلِّـلاً موقفه: «...إن التآليف نسخ الرحلة التي هي أصل جمع العلم فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير وقد لا يحصل له العلم إلا النزر اليسير لأن عنايته على قـدر مشقته في طلبه، ثم صار يشتري أكبر ديوان بأبخس ثمن فلا يقع منه أكبر من

موقع ما عوّض عنه فلم يزل الأمر كذلك حتى نسي الأول بالآخر»[8]، ويقصد الآبلي من ذلك أن على قدر المَشَقَّةِ والجهد يأتي التحصيل، والمدرسة تسهيل لطالب العلم وتخفيف له فهي تُقَلِّلُ من المشقة، فلا يحس الطالب فيها بقيمة ما يتلقاه.

وينقل "ابن مريم" ما يُدعِّم الرأي القائل بأن معارضة الآبلي لاتخاذ المدارس هو موقف سياسي قبل أن يكون نظرية بيداغوجيةً أو مذهبية، لأن الدولة القائمة إنما كانت تهدف من خلال بناء المدارس إلى الترويج للأفكار التي تخدم مصالحها، فهي تسعى كل السعي لأن يدخل الطلبة تحت تصرفها وهي بذلك تصرفهم عن العلم الحقيقي[9].

وقد كان لرأي الآبلي بُعد آخر يعود لأيام تواجده بالمشرق، فقد كان سبب اتخاذ المدارس من قبل الدولة القائمة أنذاك هو حرص النظام السياسي في المشرق الذي كان شافعيَّ المذهب على ضبط العامة بعد ظهور آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل، فسعت الدولة بدرجة كبيرة إلى توجيه الرعية وجهةً تخدم مصلحتها وتبعث على الاستقرار والسكنية والأمن، لذا كان الهم الوحيد من خلال التأكيد على وضع مناهج دراسية لإفهام الناس عامةً والمنتسبين إلى المدارس النظامية خاصة أصول الإسلام على المذهب الشافعي، فكانت دراسة الفقه والأصول المستمدة من أفكار وأراء الشافعية، وقد كانت لهذه المواجة الفكرية بين الدولة والمعارضة صور وأشكال أخرى سياسية وعسكرية، لذلك فقد ذهب ضحية هذا الصراع عدة علماء فاتهموا في دينهم ظُلماً؛ وقد اقترن اتخاذ المدارس عند الآبلي بصورة ذلك الصراع، مما ترك عنده انطباعاً سيئاً حولها.

وبنفس الشَّكل سعت الدولة المرينية في بلاد المغرب الاسلامي إلى إعادة بعث المذهب المالكي، بعدما تعرَّض للتهميش على يد الدولة الموحدية، غير أن موقف الآبلي المعارض للاتخاذ المدارس لا يعني بالضرورة معارضته للمذهب المالكي وإنما هو موقف نابع من معارضته الفكرية للنظام القائم محاولته توجيه الحياة العلمية وفق ما تقتضيه متطلبات الواقع السياسي.

يُعدُّ "الآبلي" من أنبغ علماء عصره في العلوم العقلية، فقد كان مُلماً بعلم المنطق والحساب والهندسة والطب والفلاحة والموسيقى[10]، وقد ساهم في تكوين جيل من العلماء الكبار في تلمسان، فتتلمذ على يديه العديد من علماء العصر البارزين ومنهم: "عبد الرحمن بن خلدون" وأخوه "يحي"، و"المقري" الجَدْ، و"أبو عبد الله الشريف التلمساني"، و"ابن مرزوق" الجد، و"سعيد العُقباني".

ويكفي أن نورد رأي تلامذته كي نعرف المكانة التي وصل إليها الآبلي، فـ"يحي بن خلدون" يقول: «وشيخنا العالم الأعلى الشيخ "أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي"، المعلم الأصغر، من بيت نباهة في الجند... وكان طالباً للعلم، جمَّاعة لكتبه، فعكف عنده على النظر إلى أن فاق أهل زمانه في العلوم العقلية كلها، حتى أني لا أعرف بالمغرب وبأفريقية فقيهاً كبيراً إلا وله عليه مشيخة»[11]. ووصفه "عبد الرحمن بن خلدون" في كتابه "لباب المحصل في أصول الدين" بـ: «وهو سيدنا ومولانا الإمام الكبير العالم العلامة فخر الدنيا والدين، حجة الإسلام والمسلمين، غيَّاث النفوس، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، رضي الله عن مقامه، وأوزعني شكر إنعامه، شيخ الجلالة وإمامها، ومبدأ المعارف وختامها...أفاض علينا سيب علومه وحلانا بمنثور دره ومنظومه...»[12].

لقد كانت سيرة "الآبلي" سجلاً مفتوحاً من التجارب، وكانت آراؤه كتاباً غنياً بالمعارف، فقد عاصر أعظم سلاطين تلك الفترة، ولأنه كان ذائع الصيت فقد استدعاه السلطان المريني "أبو الحسن"، وصحبه كغيره من العلماء في رحلاته، ثم وفد بعده على السلطان "أبي عنان" ونال عنده مكانة كبيرة. وقد اتصل بأكبر العلماء.

جال الآبلي شرقاً وغرباً، فأخذ العلم عن أشهر رجال عصره، واستفاد من أكبر علماء زمانه؛ لقد بدأت ملامح شخصيته العلمية تظهر بعد لقائه في سن السابعة عشر برجل جاء من العراق ليقوم بدعوة لصالح "آل البيت" بالمغرب الأوسط، هذا الشيخ يدعوه "عبد الرحمن بن خلدون" بـ "العلوي الكربلائي"، فأصبحت لهذا الداعي مكانة وهيبة كبيرتين عند "الآبلي" بدليل أنه استحى منه

بسبب "الغلمة" ووصل به الأمر إلى تناول مادة الكافور، مما أدخله في حالة عدم الوعي، ولا بُدَّ أن دعوة هذا الرجل قد أثرت في تفكير الآبلي إلى حدٍّ ما، فقرَّر مصاحبته في سفره إلى المشرق، فأتيحت له فرصة اللقاء بعدة علماء هناك ومنهم "تقي الدين بن دقيق العيد"[13]، و"ابن الرفعة"[14]، و"صفي الدين الهندي"[15]، و"التبريزي"[16]، وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول بالمشرق»[17].

قام الآبلي برحلته برفقة الشيخ "العلوي الكر بلائي" الذي يُكنُّ له احتراما كبيراً، والتساؤلات المطروحة: «إنْ كان الآبلي على هذه الحالة من الاختلاط، فكيف استطاع القيام بمناسك الحج؟ وإن كان المرض قد أصابه على السفينة، فلماذا لم يبادر الشيخ إلى ردّ الآبلي إلى بلده انطلاقا من الإسكندرية؟ أو لماذا قبل به لمواصلة الرحلة معه إلى المكة ثم إلى كربلاء وقد كان بإمكانه أيضا ردّه إلى المغرب رفقة وفود الحجيج المغاربة العائدة بعد أداء فريضة الحج؟»[18]

ولا شك أن "الآبلي" قد استفاد من تلك الرحلة استفادة كبيرة رغم ما قيل عمَّا حدث له أثناء السفر، من أنه لم يستطع الاستفادة من علمهم بسب حالة عدم التمييز التي أصيب بها[19]، إلا أن كثيراً من الدلائل التي تحملها هذه الرواية تُبين أنه روى هذه القصة ليبعد عن نفسه بعض الشُبهات، خاصةً إذا علمنا أن كثيراً من علماء المعقول الذين من المحتمل أنه التقى بهم في المشرق قد اُتهموا في دينهم بسبب اعتبار أفكارهم غريبة عن الإسلام[20]، أو بسبب بعض المواقف السياسية المشبوهة؛ فالطوسي[21] أشهر علماء المعقول في المشرق الإسلامي أنذاك أُتهم بدخوله في خدمة "هولاكو" زعيم التتر وخيانته للمسلمين، رغم أن البعض يدافع عنه قائلاً إنه قبل دعوة "هولاكو" للالتحاق به، هادفاً من ذلك انقاد ما يمكن إنقاذه من دولة الإسلام، أما "ابن سينا"[22] فقد لاقت أفكاره في علم الكلام والمنطق وحقيقة النبوة معارضة شديدة.

إن نظرة فاحصة لرواية "عبد الرحمن بن خلدون" تبين أن "الآبلي" استفاد استفادة كبيرة من علماء المعقول الذي التقى بهم في المشرق، ويُؤكد هذا القول ما نقله "يحي بن خلدون" صراحة في كتابه "بغية الرواد" حيث يقول: «وشيخنا

العالم الأعلى الشيخ "أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي"... أخذ عن الشيخين العالمين، "أبي زيد" و"أبي موسى" ولدي الإمام، وبمراكش عن "أبـي العبـاس أحمد بن البناء"، وارتحل إلى العراق في زيٍّ الفقراء، وأخذ عنهم وعاد...»[23]

وينقل "المقري" في "نفح الطيب" ما يثبت لقاء الآبلي بكثير من العلماء خلال رحلته حيث يقول: «سمعت "الآبلي" يقول دخل "قطب الدين الشيرازي" علـى "أفضل الدين الخونجي" ببلده وقد تزيَّن بزي القونوية فسأله أحدهما عن مـسألة فأجابه»[24].

لم يكن لـ"الآبلي" تأثير على تلامذته فقط بل تعدى ذلك إلى توجية الحيـاة الفكرية للمغرب الإسلامي لأجيال عديدة؛ فقد حرص منذ بداية حياته التدريسية على نقل أهم أفكار علماء المعقول المشارقة إلى المغرب؛ فقـد كلَّـف "عبـد الرحمن بن خلدون" بتلخيص كتاب "الفخر الرازي" "محصل أفكار المتقـدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين" فأخرجه التلميذ بعنـوان "لبـاب المُحصل في أصول الدين"، غير أن هذا العمل يجعلنـا نطـرح الكثيـر مـن التساؤلات وأهمها: ما الذي جعل "الآبلي" يكلِّف تلميذه "ابن خلدون" بتلخـيص هذا الكتاب رغم موقفه الواضح من مختصرات الكتب الذي قال أنها تُؤدي إلى تجريد الأفكار التي تحملها من معانيها الحقيقية[25]؛ غير أننا نشير فـي هـذا الشأن إلى أن كتابة "لباب المُلخص" كان في بداية المسيرة العلميـة لـ"ابـن خلدون"، فقد كان عمره لا يتجاوز الثامن عشرة سنةً ولم تكن أفكاره قد تبلورت بعد، زيادة على أن هذا الكتاب أختصر لهدف تعليمي، وهو اختـصار أفكـار "الرازي" لطلبة حلقة العلم، أما "الآبلي" فقد كان في مرحلة مبكرة من مـسيرته التدريسية ولم تكن أفكاره في المناهج التربوية قد استقرت بعد؛ لكننا نجد مـا يثير التساؤل عندما نتصفح "نفح الطيب"، ففي معرض حديث "المقـري" عـن جـدِّه يقول: «ومن فوائد مولاي الجد رحمه الله تعالى ما قاله إثر قول الرازي في التفسير الحس أقوى من العقل ونصه هذا على ما حكاه في "المحصل" مـن أن المعقولات فرع المحسوسات قال ولذلك من فقد حسا فقـد علمـا كالأكمـه والعنـين ومـذهب جمهـور الفلاسـفة أن اليقينيـات هـي المعقـولات لا

المحسوسات»[26]؛ ومعنى ذلك أن المقري الجد كذلك ألَّف كتاباً نقل فيـه آراء الرازي، ومعنى ذلك أن الآبلي تأثر تأثيراً بالغاً في توجه علمائه.

وقد رسَّخ الآبلي في تلميذه المقري ميولاً نحو العلوم العقلية فشرح "جمـل الخونجي"، و"اختصار المُحـصل"[27]؛ أما "ابن مرزوق الجـد" فقـد كانـت نزعته العقلية واضحة، فألف كتاباً بعنوان: «نهاية الأمل في شـرح الجمـل» ويقصد بها "جمل الخونجي" و"اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفـصة" وهـو أجوبة عن مسائل نحوية ومنطقية[28].

وحرص "الآبلي" على الحفاظ على نفس الطريق في التدريس وهـي نقـل تراث المشارقة في علوم المعقول، فقد درَسَ "الـشريف الحـسني"[29] كتـاب الاشـارات لـ"ابن سينا"[30]، والأكثر من ذلك فقد كان هَمُّـهُ أخذ المعرفة من منابعها الحقيقية، فقد دَرَّس لتلامذته تلاخيص كُتُب "أرسطو" التي وضعها "ابن رشد"[31].

لقد استطاع "الآبلي" التأثير في تلامذته وقد بلغ تأثيره إلى الجيـل الثالـث الذي يلي عصره، فقد نقل الشاطبي في كتاب "الإفادات والإشارات" عن "أبـو عبد الله المقري" عدة قواعد في القياس العقلي وكيفية الفصل في الأمور الفقهية المختلفة.

ويمكن الذهاب أبعد من ذلك في حكمنا على تأثير الآبلي على خلفه فيمكن القول أنه ساهم في الفكر العالمي الحديث والمعاصر من خلال تلميـذه "عبـد الرحمن بن خلدون" الذي أسس في مقدمتـه لكثيـر مـن العلـوم الإنـسانية والاجتماعية التي تدرس الآن في الشرق والغرب.

وعندما توفي الآبلي سنة 1370م، قيـل:« لقـد ذهبـت معـه العلـوم العقلية».[32]

الهوامش:

1- آبلة: AVILLA مدينة في الشمال الغربي لمقاطعة مدريد، وهي بهمزة مفتوحة ممدودة، وباء مكسورة. رحلة ابن خلدون، ص79.

[2]- ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط1.ج7، ص376.

[3]- جورج مارسي، تلمسان. البليدة (الجزائر): دار التل، 2004، ص 72.

[4]- ابن خلدون، العبر، ج7، ص372.

[5]- نفسه، ص378.

[6]- نفسه، ج7، ص379.

[7]- ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.85-1986. ص217.

[8]- نفسه، ص217.

[9]- نفسه، ص217.

[10]- جورج مارسي، تلمسان، ص 72.

[11]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر المُلوك من بني عبد الواد، المكتبة الوطنية، الجزائر. 1980. ص120.

[12]- محمد العادل لطيف، شيوخ ابن خلدون وتأثيرهم في فكره من خلال العبر http://www.diwanalarab.com/spip.php?article3548.

[13]- تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع ابن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري ابن دقيق العيد (625هـ/702هـ) تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام وصنف التصانيف المشهورة منها الإلمام في الحديث وشرحه وسماه الإمام وله الاقتراح في أصول الدين وعلوم الحديث وشرح مختصر ابن الحاجب في فقه المالكية ولم يكمله وشرح عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني. رحلة ابن خلدون، ص79. عبد الحي بن أحمد عكري الدمشقي، شذرات الذهب في تاريخ من ذهب،بيروت: دار الكتب العلمية، ج03، ص05.

[14]- أحمد بن محمد بن علي بن مرتفع الأنصاري أبو العباس نجم الدين الشافعي، كان يقاس بالنووي والرافعي في العلم (640هـ/710هـ).

[15]- محمد بن عبد الرحمن بن محمد الهندي صفي الدين، فقيه وأصولي (ت: 644هـ/750هـ).

[16]- أبو الحسن علي بن عبد الله تاج الدين التبريزي (ت: 749هـ).

[17]- رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي. ط1، سنة 2003. ص81.

[18]- محمد العادل لطيف، شيوخ ابن خلدون وتأثيرهم في فكره من خلال العبر.

[19]- رحلة ابن خلدون، ص81.

[20]- محمد العادل لطيف، شيوخ ابن خلدون وتأثيرهم في فكره من خلال العبر.

[21]– هو محمد بن محمد بن الحسن، نصر الدين وينسب إلى طـوس. ولـد عـام 597هـ أو 607هـ. فانتقل إلى نيسابور، عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره حيث انتسب إلـى مدرسـتها التي كان لها الفضل في تخريج نخبة من الرياضيين والفلاسفة في ذلك الزمان، أمثـال الفلكـي الشهير الحسن بن الصبَّاح ،والشاعر الفيلسوف عمر الخيَّام ، والوزير نظام الملك، درس الحكمة والفقة والرياضيات وعلم الفلك. أسس مرصد مراغة ، وطوّر في الاسطرلاب، وكان « أفـضل عصره في العلوم العقليَّة »، إلى أن لقّب أستاذ الحكماء. عارف تامر، أستاذ الحكماء والمتكلمين، نصر الدين الطوسي، مجلة الصفر / العدد 26 (يونيو 1988م)

[22]– ابن سينا من الفلاسفة الاسلام،يسمى بالمعلم الثالث، أما المعلم الأول فهو أرسـطو والمعلـم الثاني هو الفارابي، له أراء في وجود الله وصفاته، ومنزلة الأنبياء مقارنـة بالفلاسـفة، أثـارت أفكاره جدلاً وواسعاً مما أثار فقهاء الإسلام ضده.

[23] – يحي ابن خلدون، بغية الرواد. ص120.

[24] – المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرهـا لسان الدين ابن الخطيب. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، (1408هـ/1988م). ج5، ص247.

[25] – ابن مريم، البستان، ص217.

[26] – المقري، نفح الطيب، ج5، ص273.

[27] – نفســـه، ص285.

[28] – نفســـه، ص429.

[29] – أبو عبد الله محمد بن أحمد السريف الحسني من قرية علوين من أعمال تلمسان يعتبر تلميذاً للآبلي، وأستاذاً لابن خلدون. العبر، ج7. ص389.

[30] – نفســـه. ص389.

[31] – نفســـه. ص389.

[32] - جورج مارسي، تلمسان، ص 72.